

الأغنياء والروح العامة

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

سألني صديق ذات يوم : ماذا عسالك كنت تصنع : مالك لو كنت ذا مال ؟
فكان أول ماخطر لي في جواب سؤاله : أن خات المال أولا ، وبعد ذلك فكر
فيما يمكن أن نصنع به .

وكف الصديق عن مسألتي ، لما رأني أنظر من وجع الدماغ بلا موجب ، ولكني أنا
ذهبت بعد ذلك أفكر في سؤاله جادا ، وأثر المدقة فأقول ، إنني فكرت في أمر أثنينا وعم
كثير والحمد لله الذي لا يحمد على المكره سواه .

ولعلكم فهمتم أني غير راض عن كثرة الأغنياء في مصر ، ولا عن مبلغ غناهم أيضا ،
وهذا صحيح ، وليس معنى هذا أني أكره أن أرى الناس في رشد وخفض وسعة ، معاذ الله ،
كل ما في الأمر أن كثرة الغنى والأغنياء تنقلب في النهاية نعمة على الأمة إذا لم تكن مقرونة
باستخدام جانب من هذا الثراء في تعهد الفقراء ، ولهذا أراني مشفقا جدا من مغبة الخلة في مصر .
ذلك أن البون بييد جدا بين الغنى منا والفقير ، وليس كل ما أعنيه ببعده البون بين الغريقتين
أن الأغنياء عندهم كل ماشتهوه ، وأن الوسائل كلها متيسرة لهم ، وأن التقدير محروم حتى من
العلم والصحة ، وإنما أعني أيضا أن الأغنياء عندنا لا يعرفون إلا ما هم فيه ، وأنهم قلما
يشعرون بما يهائيه الفقراء ، فإذا سمعوا بذلك أو حدثهم به تحدثت استغربوا لأنهم ألفوا
الخفض والدعة ، وإذا فهموا لم يزيدوا على الإعراب عن الأسف باللسان ، دون أن تحس
قلوبهم شيئا من الألم ، أو العطف الصادق ، ولم يشعروا بدافع إلى عمل شيء يخفف هذا
البلاء الذي يكابده الجمهور الأكبر من الشعب ، أما الفقير فعلى خلاف ذلك بل تقيضه —
يعرف ما هو فيه من الضنك والعجز وسوء الحال من كل وجه ، ويعرف أيضا ما فيه الأغنياء
من النعمة والترف ، ويقع حاله المنكود إلى حالهم المحسود فيندب سوء حظه ، ويسخط
على هذه القسمة التي لا يرى فيها عدلا ، وقد يحوقل ويستسلم لقضاء الحظ فيه ولا يخطر له أن
يتمرد ، ولكنه لا يكون في سريره وقرارة نفسه إلا متبرها على الأقل .

هذا هو الذي أعنيه على الخصوص بالفرق بين أغنيائنا وفقرائنا ، أما مجرد تفاوت
الرزق فشيء لم تخل منه الدنيا قط ، ولا يمكن أن تخلو منه ، حتى في الدول الاشتراكية أو الشيوعية
لأميل إلى المساواة التامة ولا معدى عن قدر من التفاوت في الأرزاق والحظوظ ، وليس
هذا بذى قيمة تستحق الذكر ، وإنما الذي له قيمة ولا بد أن يكون له أثر لا يمكن أن يكون
حميدا فهو في غفلة الأغنياء .

حدثت مرة رجلا أنعم الله عليه بالثراء وكنت أرجو أن أوفق إلى إفتائه بإقامة مستوصف للمفقرء أو مطعم شعبي أوفى شيء من هذا القبيل بدلا من التبرع بناد رياضي ، فكان آخر ما سمعت منه بعد أن حج صوتي ونشف ربيق أن المفقرء هذا حالهم أبدا وما زالوا يعيشون هكذا طول عمرهم هم وأبنائهم من قبلهم ، فقلت له إن كونهم فقراء منذ جاءوا الى هذه الدنيا لا ينبغي أنهم يرمون بالنفاق وهم ساخطون على رقة الحال ثم إنه لا ينبغي أن ننسى أنهم جديرون بالعطف والرحمة والمعونة ، ولكنني أخفقت في إفتائه .

وحدثت رجلا آخر من سرائنا ، فنفسف وقل ، إن العبرة ليست بالفقر ، بل بنقل وطأة الإحساس به ، ومادام أن فلاحينا لا يتحمل على كاهل صدرهم ما هم فيه من الضنك ، فهم راضون شاكرون .

فقلت له إن هذا كان خليقا أن يكون صحيحا لو كان الناس جميعا على غرارهم ، إذا لما أحوا شيئا من التفاوت ولما دفعهم هذا التفاوت إلى التأمل والمقارنة والمقابلة ، ولكنهم يرون الأغنياء ولا يخفى عليهم ما يتعمدون به من نضارة العيش وخصب الجنب ، فليس يسعهم إلا أن يقبسوا حالهم الزرى إلى هذه الرفاهية المشتهاة ، ثم إنهم كانوا خلقاء أن يرضوا عن حظهم السيئ ، أو يتقبلوه بالصبر ، لو رأوا من هؤلاء الأغنياء مواجاة لهم وعظما عليهم وبرا بهم ، وتعصيدها لهم ، إذا زادوا على الصبر فشكروا ، وحمدوا الله الذي جعل بينهم أغنياء فيهم خير وتقوى ، أما والحال ليس كذلك والأغنياء يزدرونهم ولا يعاون شيئا بما هم فيه من نكد العيش فاذا تنتظر ؟

ولما كانت الملاريا فاشية في بعض أقاليم الصعيد قلت لواحد من أهل تلك البلاد آناه الله سعة عظيمة في رزقه ، ألا تخرج لهم شيئا مما أعطاك الله ؟ فسألني أي شيء أعنى ؟ قلت الطعام والكسوة ، قال هذا شأن الحكومة ، فلست أستطيع أن أطعم وأكسو قري بأثرها ، قلت صحيح ولكن هذا لا يمنع أن تجود بما عندك والذليل الى القليل كثير ، فأبى ، فلم يسعني إلا أن أقول له إنه أحق لأن هؤلاء الذين يتعدهم المرض أو يقتلهم هم الذين يعملون في مزارعه ، فاذا يكون مصير هذه المزارع المغللة الفياضة بالخيرات إذا قلت الأيدي العاملة أو قلت من الضمف ؟ أو سئطت على كبده الغلظة التي أبت له أن يطعم حائما من رجاله وعماله أو يكسو عريانا ؟

الحقيقة إن أغنياءنا فيهم غفلة شديدة حتى عن مصالحهم هم ، ونظيرهم فقير غيبة التنصر لأنهم لا يعملون ما لهم إلا الى المظاهر التي يعتقدون أنها تزيد في جاههم . وغير منكور أن أغنياءنا يتبرعون ويحجودون ويخرجون عن كثير من حرماهم ، ولكن انظر كيف يتبرعون ولماذا يسهون ؟ يفعلون ذلك في الأغلب والأعم تقربا لذوي السلطان وأهل الرياسة أو الجاه

العريض ، ولأن الذى يدعو إلى الاكتاب أو يرمى المشروع ويتهدده ممن يرجى خيرهم أو يخشى شرهم ، أو ممن يتنبأ النقي أن يبادئ الاتصال به فينخر بأن يدعوهم إلى ولائته أو يدعى إلى ولائتهم ، أو حتى أن يرى معهم فى حفل أو ناد ، أما أنهم يتبرعون أو يجودون من تلقاء أنفسهم أو بدافع من شعور النصف الذى ينتظرون عليه أو لإدراك المبلغ الحاجة إلى ما يتبرعون له ، فهذا هو الذى أنكرو ، ولكل قاعدة استثناء وما تخلو الدنيا من أهل الخير والمرءة ، ولكن هذا هو الأعم والأغلب .

حققت قدمائى مرة من طول السعى بحمل غنى على معاونة جماعة على عمل فيه خير لزميرتهم نجحت وقتلت ، ثم رأيت أن أسلط عليه وزيرا ، فما احتاج والله إلى أكثر من كلمة بالتليفون ، وزاد فضاغف المبلغ الذى كنت أقترحه أضمانا ثلاثة .

وأنا أدرك أن بعض الروح العامة كما تسمى أو هذا القعود عما يمكن أن نسميه " المروءات الاجتماعية " مرجعه إلى الأثر الذى خلفته عصور الظلم والاستبداد الطويالة التى عاشها بلادنا فيما مضى أيام كانت الحكومة كل شئ ، والشعب لا شئ ، وأيام كان الناس يظلمون ويغبنون ويؤخذون بالشبهات ، ويبتز ما لهم ويغصب ما يملكون ولا رحمة ولا عدل ولا أمن من عسف ، فتعود الناس النفاق والمصانعة والأثرة على الخصوص ، وصارت القاعدة فى الحياة " نفسى نفسى وبعدى الطوفان " .

ولا يزال أمر هذه العصور المظلمة باقيا ظاهرا . أموسا محسوسا فى علاقات الناس بعضهم بعض ، وفى علاقاتهم بالحكومة والموظفين ، وعلاقات الموظفين بالشعب ، فالناس يسيئون الظن بأنفسهم وبالموظفين ، ويتقون شرهم ولا يرجون خيرهم ولا يبالي بعضهم بعضا إلا بمقدار ما يرغبون أو يهابون ، والموظفون يعدون أنفسهم " حكاما " و يعدون الشعب " رعية " وينظرون إليه هذه النظرة المتعجرفة ويحرصون معه على " النفخة الكدابة " .

وقد عاد عهد الدستور منذ أكثر من عشرين عاما ، وسوى بين الناس وأطلقت الحريات فى حدود القانون ، ولكن عشرين عاما أو ثلاثين حتى لو حسنت السيرة لا تمحو آثار القرون الجديدة ، فما ظنك ونحن قد أسانا السيرة مع الأسف لا عن عمد ، فليست ممن يتهمون الضمائر أو يشكون فى صدق المرائر ولا ممن يعتقدون أن مصر يا يمكن أن يعتمد أن يقدم ويسى ، إلى أمته ، ولكنه الجهل أو قلة العقل أو ضعف الإدراك أو قصر النظر ، وإننا على الرغم مما أفادنا التعليم الحديث وما حصلناه من المعارف المختلفة لا تزال متأثرين بذلك الماضى وما فتئنا نمشى فى حاشية من ميراثهم الثقيل .

ولا خير في أي إصلاح مالم نعمل على محو أثر الماضي، والمحو يكون بالحرص على احترام إنسانية الإنسان وأن تقوم العلاقات بين الناس على الرحمة والعدل والتعاون وأن يدرك الناس في سلوك الحكومة أنها خادمتها لا حاكمتها، وفي سيرة الأغنياء أن غناهم ليس نعمة لهم وحدهم بل نعمة للشعب أيضا وبركة .

ولا بد أن يجيء اليوم الذي يتحقق فيه ذلك فيتخلص الناس من آثار الماضي ويحيون حياة إنسانية كريمة، وتعرف الحكومة واجبتها الصحيح وتؤديه أداء حكيما معقولا، ويسرف الأغنياء حتى الأمة عليهم .

سيجيء هذا اليوم بلا أدنى شك، ولكنه لا يجيء إلا من أحد طريقين، طريق النضال الطويل المرفى سبيله وليس هذا من الخير في شيء، والطريق الآخر أعمق وأقصر وأرشد، وهو الذي يدفع إليه الإدراك الصحيح وبعد النظر والتقدير على التفتن إلى وجوب مسابقة تيار الزمن قبل أن يفاجئنا اندفاعه ويغلبنا موجه الطامى أو كما يقول ابن لرومي :

أمامك فانظر أي نهجيك تسلك طريقان شتى مستقيم وأعوج

وعسى أن تؤثر التويم والله الموفق ما

ابراهيم عبد القادر المازني

إن ميثا شمائنا هو الخلاف الموجود بين أحوالنا ووعباتنا . بين واجباتنا ونزعاتنا ، بين الأنسانية والوطنية .

” روسو “